التَّدبُّر وتجلِّياتُه
في كتاب (البُرْهانُ في علومِ القُرْآنِ)
للزَّرْكَشيِّ (ت ٧٩٤هـ)

د. خالد حويِّر الشمس

جامعة ذي قار – كلية الآداب

ديباجة البحث:

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين...

يعد التَّدبُّر ضرورة مُلِحة في سيرورة الحياة وديمومتها، وهذا ممَّا لا ينكره أحد، فما بالك بتدبُّر القرآن، بغية تعلُّق القلب به، والأدهى من ذلك ذمَّ القرآن الكريم ووبَّخ الذين لا يتدبرونه في آيات معروفة منها ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾.

من تينك القناعتين أقبلتُ صوبه، وحددته لدى عالم بعلوم الكتاب المكنون، وهو الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن). وحاولت في التمهيد أنْ أُعرِّف بالزركشي في البدء وبمنهجه في كتابه، ومن ثَمَّ جاء المبحث الأول للتعريف بالتَّدبُّر وبيان مفهومه بعيدًا عن الإطالة في قواعده، ومفاتيحه، وبعدها بيان وجهة نظر الزركشي في مفهومه. ثم بيان تجلياته وصوره لديه في المبحث الثاني، واللافت للنظر أنَّ صور التَّدبُّر كثيرة في كتابه، منها: النحوي، والصرفي، والصوتي، والسياقي، والتأويلي، ولسانيات الخطاب، ولسانيات

الحجاج، والبلاغي، والتاريخي، والتعبيري نسبة إلى التعبير القرآني، وغير ذلك كثير ممَّا يتضح في البحث.

فكرة البحث وفرضيته:

بيان منهج الزركشي في تدبُّر القرآن الكريم بناء على اتساع مفهومه وتجاوز بوتقة التأمل إلى أنَّه فهم النص القرآني على وفق العلوم المتوافرة عليه. وقد يقود هذا إلى تحيين كتاب الزركشي على وفق العلوم المتداولة اليوم للبرهنة على علوِّ منزلة الكتاب العزيز.

التمهيد: الزركشي ومنهجه:

الزركشي هو لقبه، واسمه محمد بن بهادر بن عبد الله، ويُكنى بأبي عبد الله، ولادته سنة خمس وأربعين وسبعمائة هجريًّا، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، من أشهر أساتيذه هما جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني. رحل إلى حلب إلى الشيخ شهاب الدين الأذرعي، وسمع الحديث بدمشق وغيرها. له مؤلفات عدة، منها: تشنيف المسامع بجمع الجوامع، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، رسالة في كلمات التوحيد. توفي يوم الأحد ثالث رجب الفرد سنة أربع وتسعين وسبعمائة، ودفن بالقَرَافة الصغرى بالقرب من تربة بكتمر الساقي[1].

ولو عطفنا الكلام على كتابه ينبغي بيان أهميته، وهي تأتي مطلقة في عنوانه (علوم القرآن)، إذ حوى الكتاب أغلب العلوم القرآنية من اللغات، وأسباب النزول، واللسانيات وغير ذلك.

والغاية من تأليفه يقول عنها: ((فاستخرت الله تعالى -وله الحمد -في وضع كتاب جامع لمَّا تكلم الناس في فنونه... ليكون مفتاحًا لأبوابه، عنوانًا على كتابه، معينًا للمفسر على حقائقه، ومطلعًا على بعض أسراره ودقائقه، والله المُخلِّص والمُعين، وعليه

(١) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٨/ ٥٧٢ -٥٧٣، و: الأعلام قاموس تراجم: ٦/ ٦٠-٦١، و: البرهان في علوم القرآن (مقدمة المحقق): ١/ ١١ -١٣.

أتوكل، وبه استعين))[٢].

هذا النص يجعلك تطمئن إلى أنَّ برهان الزركشي هو فعلًا للبرهنة على نصية القرآن الكريم عبر منهج التَّدبُّر وهو ليس تفسيرًا، وذلك الهدف دلَّ عليه الزركشي باتخاذ منهج يمكن تلخيص سماته على شَكْل نقاط:

- تناول العلوم المتوافرة على القرآن الكريم.
- اتسم بالتنظيرية، فقد ذكر القواعد الأساسية لفهم النص القرآني ممَّا يحتاج اليها المفسر.
- يتزاوج مع التنظير التطبيقُ، إذ يحاول توكيد القواعد التي يذكرها، فيعطي نماذج من القرآن مع استجلاء دلالاتها.
- يستطرد في كل مبحث ويذكر فوائد، وفصول، وتنبيهات كما يسميها تتعلق بالموضوع.
- يعتمد على السابقين كثيرًا، ويصرح بأسمائهم، قال: مجاهد، سيبويه، إبن فارس، الواحدي، الغزالي، الزمخشري، إبن العربي، الحَرَالِّي، الكيهراسي، إبن الحاجب.
- من أبرز المعالم المنهجية لديه استعماله كلمة (قيل)، وأسلوب العطف في فهمه للآيات القرآنية (وكقوله تعالى).
- تنوعت مصادره بين كتب التفسير، واللغة، والبلاغة. والنحو، وغير ذلك.
- يستطرد بالأمثلة على الظاهرة الواحدة[٣].
- ومن الملاحظ على منهجه، أنَّه قد يوجد فيه ما هو خارج نطاق التَّدبُّر، والسير الدلالي، أي دراسة وصفية للظاهرة القرآنية أو تتبعية، نحو: معرفة ما فيه من غير لغة العرب[٤].

(٢) البرهان: ١/ ٣٠.

(٣) للتأكد من الملاحظ المنهجية التي ذُكِرَت ينظر: البرهان: ١/ ٤٦٥، ٤/ ١٩٣، ٢/ ٢١٧، ٣/ ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦.

(٤) ينظر: البرهان: ١/ ٣٥٩ وما بعدها.

المبحث الأول: التَّدبُّر في المعنى، والمفهوم لدى الزركشي

الهدف من هذا المبحث بيان المعنى المعجمي والتعريفي للتدبُّر، ومن بعد بيان مفهومه لدى الزركشي من خلال نصوصه في كتابه أو من خلال ما يستشف من كلامه.

تكاد لا تختلف المعجمات في مفهوم التَّدبُّر والتدبير، فهما مأخوذان من الثلاثي (دبر) وقد أرسى دلالته الأصلية إبن فارس ت٣٩٥هـ في مقاييسه، فهو يدل في أصله على خلاف القُبُل، فيقول: ((دبر: الدال، والباء، والراء، أصل هذا الباب، أنَّ جُلَّه في قياس واحد، وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قُبله. وتشذ عنه كلمات يسيرة نذكرها. فمعظم الباب أنَّ الدُبر خلاف القُبُل))[٥].

والتَّدبُّر هو تفعُّل لمطاوعة التفعيل (التدبير) معناه سياسة الأمور، والنظر، والتصرُّف، والتفكر فيها إلى ما تصير إليه عاقبتها بعد حُسْن القيام عليها[٦]. وسيكون مفهومه أنَّ الزركشي يتعقب النص القرآني بحثًا عن حسن قيامه، وروعة بيانه على وفق المعطى التكويني له بمساعدة الخيال الخصب له.

وقد يخيل لبعضهم انحصار مفهوم التَّدبُّر وتخصيصه عند قراءة القرآن الكريم، يتأمل القارئ بعد القراءة على مُكث، فيتبادر إلى ذهنه المعاني والدلالات القرآنية بفعل ذلك التَّدبُّر. والجزم باطلاق ذلك المعنى يكون غير وجيه، فالأمر ليس كذلك، بل ((هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة، ومعنى تدبر القرآن: هو التفكر والتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه وإدراك معانيه، وحكمه، والمراد منه))[٧].

والتِمَاس الدلالة من هذا المنطلق يعني التعامل على أنَّ التَّدبُّر منظومة أو قاعدة

(٥) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٣٢٤. وينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٣٠٧.

(٦) ينظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ٤٠٢، والمعجم الوسيط: ٢٦٩، و: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣/ ١٩٣ -١٩٤.

(٧) مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة: ٣.

كلية يمكن للفرد استعمالها وتوظيفها في مجاري الحياة، وعلى وجه التحديد في القرآن الكريم، انطلاقًا من معناه في اللغة، فيكون مرادفًا للبحث والتنقيب من نظر اللغويين، فقد جعله الرُّماني ت ٣٨٤هـ في فصل (البحث والتنقيب) من كتابه (الألفاظ المترادفة والمتقاربة في المعنى): ((فصل: البحث والتنقيب: فتَّش، وفحص، ونقَّب، وقرَي، واستقر، واقتصَّ أثره، وتتَّبعه، وتطلَّبه، وبحث، وتصفَّح، ونقَّر، واستبرأ، وتدبَّر، وتأمَّل))[٨].

وهذا التبني قد يدخل التفسير في مفهوم التَّدبُّر في نظر المعترِض! نعم قد يدخل التفسير في التَّدبُّر، مع الإقرار بالفرق بينهما إذ يكون التفسير على وفق منطلقات وقبليات معروفة، إمَّا لغوية أو فكرية نحو: الأثر، والاعتزال، والأشعرية، والأدبية، والتصوف، وهذا ما يُخرجه من التَّدبُّر فضلًا عن معناه اللغوي الدال على الإبانة والإيضاح من الفسر[٩]. مع لحاظ الفارق المهم أنَّ التَّدبُّر يكون في القلب أحيانًا وقد يكون في العلن.

وفي هذا السياق أود التنويه بأنَّ كتاب الزركشي ليس تفسيرًا، ومنهجه ليس منهج المفسر فيه، بل هي تأملات لقواعد يضعها في التَّدبُّر.

والأسباب التي دفعته إلى تدبُّر القرآن هي عينها التي تدفع بأي شخص آخر من المسلمين، وبهذا الصدد يقول المفكر الشهيد محمد باقر الصدر: ((ومن الطبيعي أن يتخذ الإسلام هذا الموقف ويدفع المسلمين بكل ما يملك من وسائل الترغيب إلى دراسة القرآن والتَّدبُّر فيه؛ لأنَّ القرآن هو الدليل الخالد على النبوة، والدستور الثابت من السماء للأمة الإسلامية في مختلف شؤون حياتها، وكتاب الهداية البشرية الذي أخرج العالم من الظلمات إلى النور وأنشأ أُمة وأعطاها العقيدة، وأمدها بالقوة وأنشأها على مكارم الأخلاق، وبنى لها أعظم حضارة

(٨) الألفاظ المترادفة والمتقاربة في المعنى: ٣١ -٣٢.
(٩) ينظر: كتاب العين ٧/ ٢٤٧ -٢٤٨.

عرفها الإنسان إلى يومنا هذا))[١٠].

ويعد التَّدبُّر أصل الوقوف على المعنى القرآني في منظور الزركشي، مشروطًا بالصفاء والابتعاد عن أوساخ الحياة وقاذوراتها، فضلًا عن الاطلاع الغزير والعلم الكثير، فيقول: ((أصل الوقوف على معاني القرآن التَّدبُّر والتفكر: واعلم أنَّه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كِبْر أو هوًى، أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدًا على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعًا إلى معقوله؛ وهذه كلها حجب وموانع))[١١].

وفي نص من موضع آخر يؤكد الزركشي سعة الاطلاع وأثرها في تدبر القرآن وفهمه: ((وإنَّما يفهم معانيه، ويطلع على أسراره ومبانيه، من قوي نظره واتسع مجاله في الفكر وتدبَّره، وامتد باعه، ورقَّت طباعه، وامتد في فنون الأدب، وأحاط بلغة العرب))[١٢].

إنعام النظر في هذا النص يؤكد الأُطروحة في هذا البحث باتساع مفهوم التَّدبُّر خارج نطاق ظرف تلاوة القرآن وترتيله، لذا يمكن تنميطه لدى الزركشي على نمطين:

الأول: تدبر رئيس إذا تأمل وتدبَّر وفكَّر بالمنتوج القرآني نفسه، بإبراز محاسنه الإعجازية وجمالياته البلاغية.

الثاني: تأسيس قواعد التَّدبُّر والتوجيه إليها، إذا نظرنا نظرة إجمالية لعمله، ومنها ما أقره وما أسس له حينما أعطى المفسر القواعد الضرورية لديه.

وكان التَّدبُّر لديه بحسب العلوم الكائنة في النص الكريم، مع امتلاكها سمة الاختصار والابتعاد عن الإطالة، فإذا جئنا إلى المنزع النحوي، فهو لم ينل منه نوالًا

(١٠) المدرسة القرآنية: ٣١٦.
(١١) البرهان: ٢/ ١٩٧.
(١٢) البرهان: ١/ ٢٣.

كاملًا، بل مجرد إشارات، وكذلك الصرف، وتفسير ذلك بغية الإلمام بعلوم النص القرآني الكريم في موسوعته.

المبحث الثاني: تجليات التَّدبُّر في كتاب البرهان

أسهب الزركشي في تدبُّر القرآن الكريم بفعل فكره ورويَّته الموَزَّعة على المفاصل القرآنية الواردة ضمنه، فتنوعت تلك الصور التدبيرية بتنوع العلوم القرآنية، وقد ينال البحث من تلك التجليات باختصار مجرد الإشارة إلى ثقافته العالية في منهجه التدبيري القرآني، ومن أول التجليات التي أقف عليها هو التَّدبُّر السياقي. فلا يستطيع إي واحد من المفسرين تدبُّر النص القرآني ما لم ينطلق من السياق، إذ إنَّه عامل أساس في فهمه وتأويله. وعُدَّت نظرية السياق حجر الأساس في استجلاء الدلالة. وقسم السياق في البحث الألسُني على السياق اللغوي(ما يسبق الكلمة وما يليها)، والسياق الحالي (الظروف الخارجية التي يقع فيها الكلام)[١٣]، اهتم الزركشي بهذا النوع الثاني وبيَّن فوائده، ومن أهمها: بيان وجه الحكمة في تشريع الحكم وتخصيصه، وإيضاح المعنى، ودفع التوهم والحصر، وإزالة الإشكال. ثم برهن على أثرها في فهم النص من خلال الجانب التطبيقي وأخذ آيات عدة، منها: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[سورة التغابن: ١٤]، فيقول عن سبب النزول: ((فإنَّ سبب نزولها أنَّ قومًا أرادوا الخروج للجهاد فمنعهم أزواجهم وأولادهم، فأنزل الله هذه الآية))[١٤].

ومن تلك التجليات التَّدبُّر النصي. علم النص من العلوم التي تبحث النصية من جهة الاتساق، والانسجام (الدلالة)، والتداولية في ضوء الأفعال الإنجازية. ومن آليات الاتساق الإحالة[١٥]، سمَّاها القدماء بـ(عود الضمير)، والتزم هذه التسمية أيضا

(١٣) ينظر: دلالة السياق: ٤٠.
(١٤) البرهان: ٥٣.
(١٥) ينظر: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء: ٤٥ -٤٦.

الزركشي، فقال عنه: ((كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ فالضمير في (يده) يحتمل عوْده على الولي وعلى الزوج، ورجح الثاني لموافقة القواعد))[١٦].

درس في مفصل الدلالة ما سُمِّي بعَلَاقات الانسجام، ومن أبرز خطواته في النص القرآني المناسبة بين الآيات[١٧]، وعدَّها الزركشي مِمَّا تُبَيِّنُ قدرة القائل، وتجيء لتقارب المعاني: ((وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، مرجعها -والله اعلم- إلى معنى رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العَلَاقات/ أو التلازم الذهني: كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه))[١٨].

وبعد ذلك لجأ إلى مجال التطبيق في القرآن الكريم وتدبَّر التناسُب بين السور: ((وكافتتاح سورة الحديد فإنَّه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به))[١٩].

وأخذ التَّدبُّر الدلالي نصيبه في كتاب البرهان، بل نصيبه الغزير، ومن ذلك في موضوع الوجوه والنظائر، وكعادته بدأ يُنَظِّر ويتكلم على مفهومها، فعنده الوجوه: ((اللفظ المشترِك الذي يستعمل في عدة معان، كلفظ الأمة، والنظائر كالألفاظ المتواطئة))[٢٠]. ثم تدبَّر الأمثلة لذلك في القرآن الكريم على وفق السياق القرآني، ومنها لفظة (الهدى)، فدلت على سبعة عشر حرفًا، منها: البيان، والدين، والإيمان، والداعي، والمعرفة، والرشاد، والقرآن، والتوراة، والحجة[٢١].

وقد نوَّه بمشتركات مهمة من خلال طريقة أُخرى تراها في بيان وجوه (بعل)، فتدل على الزوج أينما وردت في القرآن إلا في موضع واحد فإنَّها تدل على الصنم: ((وما في القرآن

(١٦) البرهان: ٢/ ٢٣٠-٢٣١.
(١٧) ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ٩٩ وما بعدها.
(١٨) البرهان: ١/ ٦٢.
(١٩) البرهان: ١/ ٦٤-٦٥.
(٢٠) البرهان: ١/ ١٣٤.
(٢١) ينظر: البرهان: ١/ ١٣٤-١٣٦.

من ذكر البعل فهو الزوج كقوله تعالى ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ إلا حرفًا واحدًا في الصافات ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ فإنَّه أراد صنمًا))[٢٢].

وقد تطلع صاحبنا إلى دلالة النص عِبْر مقولة الحذف في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ فقال: ((أي مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، وليس المراد أنَّ الناقة كانت مبصرة لا عمياء))[٢٣].

وهناك تدبُّرُ التعبيرات القرآنية، أي البحث في روعة التعبير ومقصده لـ((أنَّ التعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعًا فنيًّا مقصودًا))[٢٤]. ومن ذلك في روعة الترتيب، فقد ذكر الباري الرحمة قبل العذاب، وما خرج من هذه القاعدة بِذْكر العذاب قبل الرحمة، بين العلة منه: ((ومنها: قوله في سورة العنكبوت: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؛ لأنَّها في سياق حكاية إنذار إبراهيم لقومه))[٢٥]. ومن تلك التعبيرات الفرق بين خطاب الاسم وخطاب الفعل في الاستعمال القرآني: ((وقوله ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ لو قيل: ((رازقكم)) لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئًا بعد شيء، ولهذا جاءت الحال في صورة المضارع))[٢٦].

لا أريد الإطالة في مبحث التدبيرات التعبيرية[٢٧]، لكي لا ننشغل عن تدبُّرِهِ التأويلي للنص القرآني. فقد يعد التأويل للنص القرآني بمثابة الهيكل العظمي للإنسان، بل أكثر من ذلك فيكون ضرورة ملحة عند الاشتغال عليه لكشف أسراره، والمراد به في أرجح مفاهيمه لدى السيد كمال الحيدري بحسب نقله له عن ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)

(٢٢) البرهان: ١/ ١٣٧.
(٢٣) البرهان: ٢/ ٢٣٠.
(٢٤) التعبير القرآني: ١٢.
(٢٥) البرهان: ٤/ ٧٧.
(٢٦) البرهان: ٤/ ٧٩.
(٢٧) ينظر: البرهان: ١/ ١٥٠، ١٨٥، و: ٤/ ١٩٩.

في التفسير الكبير((صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به))[٢٨]، فتكون وظيفة المتأول حينها بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه، وكذلك الدليل الموجب للصرف عن معناه الظاهر[٢٩]، وهذا المفهوم عينه تجده لدى الزركشي، فيراه ما يحتمل المعنيين أو أكثر[٣٠]، وصرف المعنى إلى المضمر في ((وكقوله تعالى ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ فإنَّه يستحيل حمله على الظاهر؛ لاستحالة أنْ يكون آدمي له أجنحة، فيحمل على الخضوع وحُسن الخلق))[٣١].

تلحظ أنَّ مقولة الاحتمال كانت على مستوى الاستعارة، وقد كانت على مستويات أُخر لديه، ومنها ما كان في علم المعاني: ((وممَّا يحتمل قوله تعالى ﴿ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴾ فإنَّ ((فليلقه)) يحتمل الأمر والخبر، كأنَّه قال: فاقذفيه في اليَمِّ يلقيه اليم، ويحتمل أنْ يكون أمرًا بإلقائه))[٣٢].

وتتضح شمولية كتابه لمَّا تتبع النص القرآني في ضوء فقه اللغة، الذي يُعنى بالتدبير التاريخي للظاهرة اللغوية، فقد بحث اللغات التي نزل بها القرآن الكريم، فذكر أنَّه على سبعة أو ثلاثة أو أكثر، وأورد أقوال السلف في معاني السبعة، فكانت المُشكل أو القراءات أو سبعة أنواع: أمر، نهي، وعد، وعيد، قصص، حلال وحرام، محكم ومتشابه، وأمثال ذلك. أو لغات لسبع قبائل من العرب، أو سبعة أوجه من المعاني المختلفة، أو سبعة أوجه من الإعراب في بعض الآيات، أو بعض علوم القرآن، نحو: الإثبات، والإيجاد، والتوحيد، والتنزيه[٣٣].

أما التتبع الصرفي فقد وقف عنده بعد أنْ عَرَّف بالتصريف ((وهو ما يلحق

(٢٨) أصول التفسير والتأويل: ٢٢١.
(٢٩) ينظر: أصول التفسير والتأويل: ٢٢١.
(٣٠) ينظر: البرهان: ٢/ ١٦٤ -١٦٥.
(٣١) البرهان: ٢/ ٢٢٤.
(٣٢) البرهان: ٢/ ٢١٦.
(٣٣) ينظر: البرهان: ١/ ٢٦٩ -٢٨٧.

الكلمة ببنيتها))[٣٤]، ثم ذكر أقسامه، وفائدته، إلى أنْ تدبَّر الآيات التي تؤثِّر فيها البنية الصرفية بمجرد تغييرها، فتتحول من دلالة إلى أخرى ((وقال تعالى: ﴿ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ ؛ فانظر كيف تحول المعنى بالتصريف من الجور إلى العدل))[٣٥].

وكان التشكيل النحوي سببًا للتدبر في الكتاب أيضًا، وبدأ يؤكد أهميته بقوله: ((وعلى الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسراره النظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحلها، ككونها مبتدأ أو خبرًا، أو فاعلة أو مفعولة، أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير، أو جمع قلة أو كثرة، إلى غير ذلك))[٣٦].

ويوجب في الوقت نفسه على المُتدبِّر نحويًّا مراعاة أمور، منها معرفة معنى الكلمة المفردة أو التركيب قُبَيل الإعراب كما في (كلالة): ((ولهذا قالوا في توجيه النصب في (كلالة) في قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ أنَّه يتوقف على المراد بالكَلالة، هل هو اسم للميت، أو للورثة، أو للمال؟.))[٣٧].

وأجهد الزركشي نفسه ببيان الدلالة النحوية، لا سيَّما في الإعراب: ((احتمال الفعل للجزم والنصب فمنه: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، يحتمل أنْ يكون ما بعد الفاء مجزومًا، ويحتمل أنْ يكون منصوبًا، وإذا كان مجزومًا كان داخلًا في النهي، فيكون قد نهي عن الظلم، كما نهي عن قربان الشجرة، فكأنَّه قال: ولا تقربا هذه الشجرة فلا تكونا من الظالمين))[٣٨].

كثر التَّدبُّر النحوي إلى حد الغاية بخاصة في الجزء الأخير من الكتاب، ذكر فيه الأدوات النحوية اللازم معرفتها من لدن المفسر ويكاد يكون الجزء الأخير مختصًّا

(٣٤) البرهان: ١/ ٣٧٣.
(٣٥) البرهان: ١/ ٣٧٣ - ٣٧٤.
(٣٦) البرهان: ١/ ٣٧٨.
(٣٧) البرهان: ١/ ٣٧٨.
(٣٨) البرهان: ٤/ ١٦٧.

بهذا الشأن، ومن ذلك الأداة (ثم) في قوله: ((وأما قوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ وقد كان قضى الأجل، فمعناه: أخبركم أني خلقته من طين، ثم أخبركم أني قضيت الأجل، كما تقول كلمتك اليوم ثم كلمتك أمس))[٣٩].

ويمثل التَّدبُّر البلاغي نمطًا آخر في الكتاب، حتى كاد يغلب على الكتاب فتشاطر مع النحو النصيب، وكان في أبواب البلاغة المعروفة على مستوياتها الثلاثة. تجنبًا للإطالة نأخذ مثالًا عن الكناية، فيقول: ((فمن أسبابها ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه، كقوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ فكنى بالمرأة عن النعجة كعادة العرب، أنَّها تكنى بها عن المرأة))[٤٠].

وتدبر الألفاظ تدبرًا مجازيًّا على وفق علاقاتها، ومنها عَلَاقة اطلاق ٱسم الجزء على الكل: ((كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أي ذاته))[٤١].

وقد ولج الزركشي التَّدبُّر الصوتي المترتب على الصوت اللغوي، وَلجه مباشرة هذه المرة من دون أنْ ينظِّر للمسألة، واستخرج الدلالات المترتبة على الإبدال الصوتي في الحروف، وعقد فصلًا (في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى) وأدرج هذا الفصل ضمن خط المصحف ورسمه ((مثل ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾، ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ فبالسين السعة الجزئية كذلك علة التقييد، وبالصاد السعة الكلية، بدليل علو معنى الاطلاق، وعلو الصاد مع الجهارة والاطباق))[٤٢].

وإذا انتقلت إلى علم الحِجاج، أجده قد تَدبَّر مواضعه، ونوَّه عليه في فصل (إلجام الخصم بالحجة) وقال في تعريفه: ((وهو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية،

(٣٩) البرهان: ٤/ ٢٩٦.
(٤٠) البرهان: ٢/ ٣٠٥.
(٤١) البرهان: ٢/ ٢٨٠. وتدبر الترديد، والالتفات، والتشبيه، والاستعارة، والطباق، والمقابلة، والتعديد، وغير ذلك، ينظر على التوالي: البرهان: ٣/ ٣٤٧، ٣٦١، ٤٧٢، ٤٨٩، ٥١٢، ٥٣١.
(٤٢) البرهان: ١/ ٥٠١.

تقطع المعاند له فيه))[٤٣]. ثم قدَّم الأدلة الحجاجيَّة في الاستدلال على المعاد الجسماني: ((ومن ذلك الاستدلال على المعاد الجسماني بضروب: أحدهما: قياس الإعادة على الابتداء، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾، ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾))[٤٤].

فضلًا عن أنواع الحجج التي بحثها الدرس الألسُني الحجاجي الحديث المتمثلة بالقرآن الكريم، نوَّه الزركشي بنوع آخر من الحجاج هو الحجاج المنطقي الذي تبنَّاه (شايم بيرلمان)، المستنتج من النص: ((ومنه نوع منطقي وهو استنتاج النتيجة من مقدمتين، وذلك من أول سورة الحج إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ فنطق على خمس نتائج من عشر مقدمات؛ فالمقدمات من أول السورة: ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، والنتائج من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾))[٤٥].

وفي سياق التَّدبُّر المنضوي في الألسُنية الحديثة نجد تدبرًا في لسانيات الخطاب التداولي لاسيَّما (مبدأ التأدب) الذي جاءت به (روبين لاكوف)، ومفاده (كن مؤدبًا في خطابك)[٤٦] ؛ لاستقامة التواصل الإنساني والتعامل الأخلاقي، وهنا المخاطِب هو الله تعالى، راعى في حيثيات خطابه المتلقي بعيدًا عن خدش الحياء حفاظًا على ماء وجهه. أدرك الزركشي الأمر، وعقد بابًا بعنوان (التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله وأنَّ الكل بيده) ((كقوله تعالى ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم. وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، ولم يقل: ((والشر)) وإنْ كانا جميعًا بيده، لكن الخير يضاف إلى الله تعالى إرادة، ومحبة، ورضا، والشر لا يضاف إليه إلا إلى

(٤٣) البرهان: ٣/ ٥٢٤.
(٤٤) البرهان: ٢/ ٣١.
(٤٥) البرهان: ٣/ ٥٢٥.
(٤٦) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٤٠.

مفعولاته؛ لأنَّه لا يضاف إلى صفاته ولا أفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيه))[٤٧].

ويرتبط بهذا الحقل اللساني أنماط الخطاب لمَّا حاول الزركشي تنميط الخطاب القرآني بعد جولات تدبُرية، وصلت تلك الأنماط إلى ثلاثة وثلاثين نمطًا أو وجهًا، منها خطاب العام ويراد به العموم كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾. ومنه خطاب النوع، نحو: ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ والمراد بنو يعقوب، ومنه خطاب العين ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، ومنه خطاب الجمادات خطاب مَنْ يعقل ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[٤٨].

تندرج تلك التدبيرات التي سجلتها في ما يمكن تسميته التَّدبُّر اللساني، يقابله التَّدبُّر غير اللساني، ومنه التَّدبُّر التناصي بتسمية النقد الحديث على يد جوليا كرسطيفيا، وسمَّاه الزركشي المعاضدة[٤٩]، وهذا يكثر في المناسبة بين القرآن والحديث النبوي الشريف، وعقد له بابًا (في باب معاضدة السنة للقرآن) وتدبر الآيات والأحاديث المتوافقة ((ومن ذلك قوله ﷺ ((إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفِّدت الشياطين)) في مفهوم قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ إلى أنَّ الصوم ينتهي نفعه إلى اكتساب التقوى))[٥٠].

وأطال الزركشي الوقوف على الخط في القرآن متدبرًا؛ أهميَّته ولاختلاف الناس في رسم المصحف، فأخذ يقارن بين الخطوط ورسم الكلمات رابطًا الأمر بالدلالة، ومنه سقوط الإلف في بعض الأفعال من بعض المواضع القرآنية لعلَّةٍ ((وكذلك ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ﴾، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾، فإنَّ هذا المجيء ليس على وجهه الصحيح))[٥١].

كان المثال بحذف حرف ويوجد أمثلة أخرى بزيادة حرف في قوله: ((الزائد

(٤٧) البرهان: ٤/ ٧٠.
(٤٨) ينظر: البرهان: ٢/ ٢٣٧ - ٢٧٠.
(٤٩) ينظر: البرهان: ٢/ ١٣٩.
(٥٠) البرهان: ٢/ ١٥٥.
(٥١) البرهان: ١/ ٤٦٣.

الثاني: الواو، زيدت للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعظم رتبة في العيان مثل: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى ﴾. ويدل على ذلك أنَّ الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد))[٥٢].

ومن المشاغل الأُخر في كتابه المشغل التأريخي للنص القرآني، فقد حاول إفراز المكي من المدني في الآيات على وفق البعد التاريخي والضوابط التي وضعها من سبقه ففصَّل القول فيها[٥٣]، ثم تتبع ما نزل في كل بلد، فبعضه بالجحفة وبيت المقدس، والطائف، والحديبية، وبحث ما نزل في الأزمان، فمنها في الليل ومنها في النهار[٥٤].

وهناك لون آخر هو دفع التناقض عن القرآن وتنزيهه عن المطاعن، فعرض الزركشي آراء السابقين ثم دفع التعارض بأمثلة قرآنية منها: ((ومثل قوله ((ولا تقتلوا الصيد وانتم حرم)) ونهيه ﷺ عن قتل صيد مكة مع قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ فجعل النهي فيمن اصطاده في الحرم، وخص مَن اصطاده في الحل وأدخله حيًّا فيه))[٥٥].

وكم هو جامع كتاب البرهان فلم يترك أحكام ترتيل القرآن وتجويده، ومنه في باب الوقف والابتداء وربطه بالدلالة ((وهو فن جليل، وبه يعرف كيف أداء القرآن. ويترتب على ذلك فوائد كثيرة، واستنباطات غزيرة. وبه تتبين معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات))[٥٦]. والأمثلة كثيرة منها: ((ومثله الوقف على قوله ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ والابتداء بقوله ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ وذلك للإعلام بأنَّ الله تعالى جعل الرهبانية في قلوبهم أي خلق، كما جعل الرأفة والرحمة في

(٥٢) البرهان: ١/ ٤٦٦.
(٥٣) ينظر: البرهان: ١/ ٢٣٩ -٢٤٨.
(٥٤) ينظر: البرهان: ١/ ٢٥٤ -٢٥٥.
(٥٥) البرهان: ٢/ ٥٨.
(٥٦) البرهان: ١/ ٤١٥.

قلوبهم وإنْ كانوا قد ابتدعوها فالله تعالى خلقها))[٥٧].

ختام البحث:

في الخاتمة ليس بوسعنا إلا القول إنَّ الزركشي أطال في التَّدبُّر القرآني، وإنَّه يرى عدم فهم القرآن خارج التَّدبُّر ونطاقه، بل هو أساس فيه على وفق المعطيات المتوافر عليه، ولا يكون إلا على وفق التكنيك اللساني والتواصلي له عِبْر النحو، والبلاغة، والصرف، والصوت، والخطاب، والحجاج، والتداولية، والعلوم التاريخية وغير ذلك، شريطة الارتكاز على السياق القرآني، وهذا يقود للاعتراف بإنَّ التَّدبُّر هو طريق من طرائق الدلالة القرآنية لدى الزركشي في أقل تقدير.

مصادر البحث:

- أصول التفسير والتأويل، مقارنة منهجية بين آراء الطباطبائي وأبرز آراء المفسرين، تأليف السيد كمال الحيدري، ط١، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر، بيروت -لبنان، ١٤٢٧ -٢٠٠٦م.
- الأعلام قاموس وتراجم، تأليف خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- البرهان في علوم القرآن، تأليف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤٢٥ -١٤٢٦هـ -٢٠٥٥م.
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، تأليف المحقق حسن المصطفوي، ط١، الناشر: مركز نشر العلامة المصطفوي، مطبعة اعتماد، ١٣٨٥هـ. ش.
- التعبير القرآني، تأليف الدكتور فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد -بيت الحكمة، بغداد -العراق، د. ط، ١٩٨٦ -١٩٨٧م.
- دلالة السياق، تأليف رَدَّة الله بن رَدَّة بن صيف الطَّلحي، رسالة دكتوراه، جامعة

(٥٧) البرهان: ١/ ٤٢٥.

أم القرى، كلية اللغة العربية، ١٤١٨هـ.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تأليف شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمود الارناؤوط، دار ابن كثير، دمشق -لبنان، ط١، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، تأليف الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٣١هـ -٢٠٠٠م.
- كتاب الألفاظ المترادفة، تأليف أبي الحسن علي بن عيسى الرماني ت٤٨٣هـ، تحقيق: محمود الشنقيطي، مطبعة الموسوعات، مصر، ١٣٢١هـ.
- كتاب العين، تأليف أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ت١٧٥هـ، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية والنشر، بغداد العراق، ١٩٨٤م.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، تأليف الدكتور طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت -لبنان، الدار البيضاء -المغرب، ٢٠٠٦م.
- لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء، تأليف الدكتور نعمان بو قرة، دار الكتب العلمية، محمد علي بيضون، بيروت -لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ -٢٠١٢م.
- المدرسة القرآنية، تأليف الشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر، مؤسسة الثقلين، سوريا دمشق، كربلا -العراق، د. ط، د. ت.
- معجم مقاييس اللغة، تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت٣٩٥هـ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط، تأليف مجموعة مؤلفين، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة-مصر، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.